

تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والشبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاة، ويبسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وَأَضَلْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهُمْ * ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمناً ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخدموا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾

كان قتال وحرب. فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذلك﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومدولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبيد المسلمون خضراءهم.

﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

﴿والذين قتلوا في سبيل الله﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة.

﴿سيهديهم﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿ويصلح بالهم﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جعلتها القتل في سبيله، ووقفهم للقيام بما أمرهم به ورغبتهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿٧ - ٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلْ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطْ أَعْمَالَهُمْ﴾ هذا أمر منه



﴿٤ - ٦﴾ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا

فَضْرِبْ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيُهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْهِمْ * وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم -: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حتى تخننهم وتكسروا شوكتهم وتطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولى وأصلح، ﴿فشدوا الوثاق﴾ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمان المسلمون من هربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المن عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تدفوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشترروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أي: حتى لا يبقى حرب، وتيقن في المسألة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا



أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانفادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿والذين اهتدوا﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زادهم هدى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك، ﴿وأتاهم تقواهم﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزأين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكروا، وجاءهم النذير.

(١) في ب: وجلاله.

ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ ﴿نعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كل مضطرب إلى ذلك.

والنظر إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١)، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعمة الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبه، والتأله له وحده لا شريك له. الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأولياته القائم بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على

ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليفة أخلاقاً وعقولاً، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا الله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تنزلزه الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجملة ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والخسنة الماحية، وترك الذنوب والعمو عن الجرائم.

﴿و﴾ استغفر أيضاً ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعوا لهم ويستغفروا لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يجب لهم من الخير ما

يجب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعاصيهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَالله يعلم منقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحرركاتكم، وذهابكم وبعثتكم، ﴿ومشاوكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠ - ٢٣﴾ ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ من كراحتهم لذلك، وشدته عليهم.

وهذا كقولته تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم نذبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم * طاعة

وقول معروف﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفروا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فيذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالتأني الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقباله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حربي بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فتم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّ أُولَئِكَ سَمِعُوا لَحْمَكَةَ وَذُكْرَهَا الْفِتْنَةَ رَأَيْتَ الَّذِينَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ ﴿٢٠ - ٢٣﴾ ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ ﴿٢٠ - ٢٣﴾ ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لعنهم الله﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلهم أذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيئات.

﴿٢٤﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّروهم من كل شر، ولملا قلوبهم من الإيمان، وأفسدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذروهم ولعمرفهم برهم، وأسماؤه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويبيل.

﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعذّلها إلى: وطن نفسه.

فقال: ﴿ولنبلونكم﴾ أي: تختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿٣٢﴾ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحيط أعمالهم﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال، فإنهم ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ فلا يتقص به ملكه.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي: مساعيمهم التي بذلوا في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿٣٣﴾ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتنب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة.

وقوله: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من مَنِّها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والنجس ونحوها، كلها داخلة في هذا، ومنهني عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع

الملائكة﴾ المولكون يقبض أرواحهم، ﴿يضربون وجوههم وأديبارهم﴾ بالمقامع الشديدة!؟

ذلك﴾ العذاب الذي استحققه ونالوه ﴿ب﴾ سب ﴿أنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾ من كل كفر فسوق وعصيان.

﴿وكرهوا رضوانه﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيه منة، ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكون عنة سيناته، ويضاعف أجره وثوابه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو شاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم * ولعرفتهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ يقول تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تفرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمنح، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين آتاه الامتحان، جنح وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم.

﴿ولعرفتهم في لحن القول﴾ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بقلبات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،



فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

﴿٢٥ - ٢٨﴾ إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأمل لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾.

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و ﴿قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿والله يعلم إسرارهم﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فكيف﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورويتهم الفظيعة ﴿إذا توفتهم

قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ هذا تهديد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب

ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمسكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاهياً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والعقلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا

هذه الأمور قد وُتت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسراته وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي

من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليشبههم الثواب الجزيل، ولهذا قال:

﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعتكم من أخذ أموالكم، ويقانكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: ﴿إن يسألكموا فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تدعون لتشفقوا في سبيل الله﴾ على هذا الوجه، الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فمنكم من يبخل﴾ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

الحال أنكم ﴿أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم﴾ أي: ينقصكم أعمالكم.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وهدداً، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فيهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعمون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى:

﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون مرططاً يغيب الظلمة ولا يبالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ إن يسألكموا فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتشفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تولوا يبدل

النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهي عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾ فلا تمنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾ هذه الآية والتي في البقرة قوله: ﴿ومن يتردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إن الذين كفروا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وصدوا﴾ الخلق ﴿عن سبيل الله﴾ بتزهدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وتزيينه، ﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ لم يتوبوا منه، ﴿فلن يغفر الله لهم﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يخلقها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يعافيهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فلا تمنوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا وثابتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام، وإغضاباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة، ﴿و﴾

ثم قال: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولئن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الغني وأنتم الفقراء﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقانكم، لجميع أموركم.

﴿وان تتولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتنال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطعمون الله ورسوله، ويعيئون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

تم تفسير سورة القتال،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي: محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجاً، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعض فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال:

﴿٤ - ٦﴾ ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليهم حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

يجبر تعالى عن مئتيه على المؤمنين بإزالة السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليلتقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فنقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المظلوم بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريبهم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يُعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضب الله عليهم﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ورسوله، ﴿ولعنهم﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ كرر